

وهما بُعدان للخلاص لا ينفصلان، أُعطيّا للكنيسة لتبشّر بهما من أجل خير الجنس البشريّ. وعُهدَ بهما إلينا أيضاً، نحن الذين اخترنا من قبل أن يصوّرنا في البطن (راجع إرميا 1، 5)، وولدا من جديد في ماء المعمودية، ثمّ، من دون أيّ استحقاق منا وفوق كلّ حدودنا، قادنا إلى هنا، ومن هنا أرسلنا، لكي يُعلن الإنجيل لكلّ الخليقة (راجع مرقس 16، 15).

ثمّ إنّ الله الذي دعاني من خلال تصويّتكُم، إلى أن أكون خليفة أوّل الرّسل، وضع هذا الكنز بين يديّ لكي أكون، بمعونته، وكيلاً أميناً عليه (راجع 1 قورنثس 4، 2) لخير جسد الكنيسة السّريّ كلّ، لكي تكون دائماً المدينة المبنية على الجبل (راجع رؤيا يوحنا 21، 10)، وسفينة الخلاص التي تُبحر عبر أمواج التّاريخ، والمنارة التي تُبهر لياالي العالم. وذلك ليس بفضل روعة هيكليّاتها أو كبر مبانيها – مثل هذا المَعْلَم الذي نحن موجودون فيه – بل بقداسة أعضائها، وهو "شعبٌ اقتناه الله للإشادة بآياتِ الذي دَعَاكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ" (1 بطرس 2، 9).

مع ذلك، وقبل المحادثة التي أعلن فيها بطرس عن إيمانه، هناك أيضاً سؤال آخر: سأل يسوع "مَنْ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَوْلِ النَّاسِ؟" (متّى 16، 13). هذا ليس سؤالاً بسيطاً، بل يعبر عن جانب مهمّ من خدمتنا: الواقع الذي نعيش فيه، بحدوده وإمكاناته، وأسئلته وقناعاته.

"مَنْ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَوْلِ النَّاسِ؟" (متّى 16، 13). إن فكرنا في الحادثة التي نتأمّل فيها، يمكن أن نجد جوابين محتملين على هذا السؤال، وهما يمثلان موقفين متناقضين.

أولاً جواب العالم. يقول الإنجيليّ متى إنّ المحادثة بين يسوع وتلاميذه حول هويّته جرّت في مدينة قيصرية فيلبس الجميلة، المليئة بالقصور الفخمة، والمحاطة بمناظر طبيعيّة ساحرة، على سفوح جبل حرمون، وهي أيضاً مركز لدوائر سلطة قاسية ومسرح خيانات وعدم أمانة. هذه الصّورة تعبّر عن عالم يعتبر يسوع شخصاً لا أهميّة له على الإطلاق، أو على الأكثر شخصيّة غريبة يثير الإعجاب بطريقته غير العاديّة في الكلام والأعمال. أمّا إذا صار حضوره مزعجاً لما يستدعيه من صدق ومطالب أخلاقيّة، فلن يتردّد هذا "العالم" عن رفضه وتصفيته.

وثانياً الجواب الآخر المحتمل على سؤال يسوع هو جواب عامّة الناس. بالنسبة لهم، يسوع الناصريّ ليس "ثرثاراً"، بل رجل صالح، وشجاع، يتكلّم جيّداً ويقول كلاماً عادلاً، مثل غيره من الأنبياء الكبار في تاريخ إسرائيل. لهذا تبعوه، على الأقلّ ما داموا يستطيعون ذلك دون مخاطر وإزعاجات كبيرة. لكنهم اعتبروه إنساناً فقط، ولذلك، في لحظة الخطر، وأثناء آلامه، هم أيضاً تخلّوا عنه وذهبوا محبطين.

ما بلغت الانتباه في هذين الموقفين هو تعبيرهما عن واقع اليوم. فيهما في الواقع أفكار يمكن أن نجدها بسهولة على ألسنة الرّجال والنساء الكثيرين في عصرنا، ربّما بتعابير أو لغة مختلفة، ولكنّها نفسها من حيث المضمون.

اليوم أيضاً، الأماكن التي يُعتبر فيها الإيمان المسيحيّ أمراً عبثاً ليست قليلة، فهو للضعفاء وغير الأذكياء، ويفضّلون عليه مجالات وضمانات أخرى، مثل التّكنولوجيا والمال والتّجّاح والسّلطة والمتعة.

هذه أماكن ومجالات يصعب فيها أن نشهد للإنجيل وأن نبشّر به، وفيها يتعرّض المؤمنون للسّخرية أو المعارضة أو الاحتقار، أو في أفضل الأحوال يتحمّلهم الناس ويشفقون عليهم. مع ذلك، فهي أماكن ومجالات تستدعي الرّسالة، لأنّ غياب الإيمان يجلب معه مراراً مآسي مثل فقدان معنى الحياة، ونسيان الرّحمة، والاعتداء على كرامة الإنسان في أقسى أشكاله، وأزمة العائلة، وجراح أخرى كثيرة يتألّم منها مجتمعنا بشدّة.

اليوم أيضاً، لا تغيب المجالات والظّروف التي يُقدّر فيها يسوع كإنسان، لكن يتمّ اختصاره إلى مجرد نوع من قائد كاريزميّ أو رجل خارق (سوبرمان). وهذا ليس فقط بين غير المؤمنين، بل أيضاً بين الكثيرين من المعمّدين، الذين ينتهي بهم الأمر، في هذا الحال، إلى أن يعيشوا في إلحاد فعليّ.

هذا هو العالم الذي أُوكل إلينا، حيث نحن مدعوّون إلى أن نشهد للإيمان بالمسيح المخلّص وبنصره، كما علّمنا البابا

فرنسيس مرّات عديدة. لذلك، بالنسبة لنا أيضًا، من الضروري أن نردّد: "أنت المسيح ابن الله الحيّ" (متّى 16، 16).

من الضروري أن نقوم بذلك أولًا في علاقتنا الشخصية معه، وفي التزامنا في مسيرة توبتنا اليومية. وأن نقوم بذلك أيضًا، بكوننا كنيسة، فنعيش معًا انتماءنا إلى الربّ يسوع وننقل البشري السّارة إلى الجميع (راجع المجمع الفاتيكانيّ الثاني، دستور عقائديّ في الكنيسة، نور/الأمم، 1).

أقول هذا لنفسيّ أولًا، بصفتي خليفة بطرس، وأنا أبدأ رسالتيّ هذه كأسقف للكنيسة في روما، والمدعوّة إلى أن تتّراس الكنيسة الجامعة بالمحبّة، بحسب التّعبير المعروف للقديس أغناطيوس الأنطاكيّ (راجع الرّسالة إلى أهل رومة، المقدّمة). فهو، بينما كان يُقتاد وهو مقيّد بالسّلاسل إلى هذه المدينة، مكان استشهاده الوشيك، كتب إلى المسيحيّين فيها قال: "سأكون حقًا تلميذًا ليسوع المسيح، عندما لن يرى العالم جسديّ" (الرّسالة إلى أهل رومة، 4، 1). كان يشير إلى الوحوش في السّيرك التي ستفتّسه - وهذا ما حدث بالفعل -، لكن كلماته تذكّرنا بمعنى أوسع بالتّزام لا يمكن أن يتخلّى عنه أيّ شخص في الكنيسة يمارس خدمة السّلطة: وهو أن نخفيّ ليقبّل المسيح، وأن نصير صغارًا نحن لكي يُعرّف ويُمجّد هو (راجع يوحنا 3، 30)، وأن نبذل أنفسنا إلى أقصى حدّ حتّى لا تنقُص الفرصة لأيّ أحد لكي يعرفه ويحبّه.

ليمنحنا الله هذه النّعمة، اليوم ودائمًا، بمعونة وشفاعة سيّدتنا مريم العذراء، أمّ الكنيسة الجزيلة الحنان.

© جميع الحقوق محفوظة - حاضرة الفاتيكانيّان 2025